شوف تشوف

رشيد نيني
r_niny@yahoo.fr

وسام الشرف من درجة امرأة...

طيلة أسبوع وأنا أفكر في موضوع لهذا اليوم الذي يحتفل به العالم بالمرأة. ذهبت إلى مراكش لحضور حفل خميسة الذي يكرم النساء لعلني أعثر على أفكار أطعم بها مقالتي. فماذا رأيت. رأيت نساء رائعات يتعبن في صمت، حفرن أسماءهن بأظافرهن وينتظرن باحتشام أن يسمعن كلمة إطراء أو مجرد اعتراف صغير. رأيت نساء بأكتاف عارية وصدور نصف مكشوفة ينزلن أدراج مرقص العنبر بخيلاء طاووسي ليلة استقبال الضيوف، يكدن يتعثرن بأطراف ثيابهن الشفافة. رأيت نساء تقليديات جالسات بخجل فوق إحدى كنبات المرقص ينظرن باندهاش إلى فتيات في مقتبل العمر يتخيرن بين زجاجات الويسكي الغارقة وسط الثلج. رأيت نساء حائرات يبحثن عن سبب وجيه لوجودهن تحت كل هذه الأضواء الباهرة، بعد أن قضين حياتهن السابقة تحت الظل. رأيت دهشة عميقة في عيون نساء وسجائر كثيرة بين أصابع نساء أخريات. رأيت المرأة التي تكتب الشعر والمرأة التي تؤلف الكتب والمرأة التي تسند الأيتام إلى صدرها وتغني لهم والمرأة المصارعة فوق الحلبة. رأيت المرأة التي تفعل الخير والمرأة التي تفعل الشر. المرأة التي تربي والمرأة عديمة التربية. رأيت سيدات المجتمع وخادمات سيدات المجتمع. رأيت النساء اللواتي يتحرك الرجال المحترمون بحركة بسيطة من أصبعهن الصغير، والنساء اللواتي يتحرك المشهد كله بحركة واحدة من خصورهن الممتلئة. رأيت المرأة التي تقف وراء مائدة الطعام لكي تخدم المرأة التي أتت لتأكل الطعام، رأيت المرأة التي تجمع الأطباق والمرأة التي تطفئ وسط الأطباق بين بقايا الأكل سيجارتها الراقية. رأيت الرقاصات اللواتي نزلن درج المرقص شبه عاريات، والمرأة التي خفضت بصرها خجلا، رأيت المرأة التي تحركت أردافها والمرأة التي فضلت الجلوس بعيدا خلف السارية. رأيت النساء اللواتي أتين بصحبة أزواجهن، والنساء اللواتي أتين بصحبة عشاقهن، والنساء اللواتي أتين مصحوبات فقط بحزنهن القديم. رأيت النساء اللواتي يبحثن عن نظرة والنساء اللواتي يبحثن عن ليلة مع رجل والنساء اللواتي يبحثن عن عمل. رأيت النجمات اللواتي يحذرن الابتسام حتى لا تظهر تجاعيدهن للمصورين، والنساء الجميلات اللواتي يوزعن ضحكاتهن مثلما يوزع صحافي فاشل بطائقه الشخصية. رأيت الباحثات عن الشهرة، والمكتفيات بالظل، والحالمات بالمجد. رأيت نساء مستعدات لتسلق كل الأكتاف لبلوغ القمة، وأخريات جالسات في القمة حتى دون أن يفطن للأمر. رأيت العاهرات في علب الفنادق الليلية، رأيت الحزن في عيونهن الدائخة. رأيت المرأة الحامل التي تنظف موائد الإفطار في قاعة الأكل بالفندق. رأيت النخوة في عينيها وهي تشتغل وتفكر بجنينها الذي ينام في بطنها. رأيت موظفة الاستقبال بالفندق وهي تبتسم، سعيدة ربما بعملها الذي تأكل منه خبزها اليومي بعرق الجبين. رأيت نقاشة الحناء مشغولة برسم الورود فوق أذرع السياح البيضاء، وقارئة الكف جالسة تفك حروف الغيب تحت مظلتها السوداء، وبائعة الأعشاب تتحدث عن نباتاتها بحنان كما لو كانت تتحدث عن أطفالها. رأيت القوادة التي تستدرج بعيونها السياح الباحثين عن اللذة بين سيقان المدينة المفتوحة للعابرين. رأيت النساء اللواتي يدعوهن عشاقهن كأس ويسكي في مرقص العنبر، والنساء اللواتي يدعوهن عشاقهن إلى نصف خبزة محشوة بالنقانق في الأزقة الخلفية للمدينة. رأيت نساء مترفات يركبن أرقاما فوق هواتفهن الجميلة للاطمئنان على كلابهن الأليفة التي تركنها في الفيلا بصحبة أزواجهن، ورأيت نساء باكيات يركبن أرقاما ليطلبن اسم صيدلية الحراسة المفتوحة تلك الليلة. رأيت نساء واثقات من أنفسهن تستطيع أن تزنهن بالذهب، ورأيت نساء تافهات لا تستطيع أن تجمعهن حتى باللقاط. رأيت الأم والزوجة والعشيقة، رأيت الخائنة والوفية. واعتقدت أنني رأيت كل النساء.

لكنني عندما عدت إلى عملي وفتحت بريدي تأكدت أنني نسيت امرأة مهمة لا يجب أن يمر هذا اليوم دون أن يعلم الناس بقصتها. لم تحصل على جائزة خمسية ولم يرشحها أحد لأية جائزة. إنها السيدة الشرادي فاطمة، سبعون سنة، قررت أن تقوم بمسيرة مشيا على الأقدام من القصر الكبير إلى الرباط لتقابل صاحب الجلالة. فاطمة زوجة جندي سابق دافع عن الوطن لثماني عشرة سنة قبل أن يموت ويحرم من كل حقوقه، تاركا في عهدتها سبعة أبناء. اشتغلت في البيوت والأفران وباعت السجائر بالتقسيط لكي يحصل ابنها الأصغر على إجازة في العلوم الاقتصادية. وكما عاش زوجها ومات بلا حقوق فإن ابنها أيضا يعيش القصة الأليمة نفسها. اشتغل في الإنعاش ككاتب مؤقت مع وعد بتسوية وضعيته، لكنها رأت كيف سوى سعادة العامل وضعيات أقاربه وأهمل ابنها. طرد من البنك والوكالة الحضرية لتوزيع الماء، ولكي تكتمل المأساة كان يجب أن تنصب عليه شركة النجاة.

هذه الأم الشجاعة قررت أن ترافق ابنها إلى الرباط لمقابلة الملك، وقد خرجت يوم الثاني من مارس من ساحة مولاي علي بوغالب بالقصر الكبير مشيا على الأقدام. امرأة في عقدها السابع، قلبها مريض، لكنه لم يمت، مازال ينبض بالأمومة. امرأة لم ترض أن يهان ابنها كما أهين زوجها، لذلك أمسكته من ذراعه ومشت به نحو الملك لكي تشكو إليه ظلم الناس والمجتمع. ألا تستحق أم كهذه في هذا اليوم وسام الشرف من درجة امرأة ؟